

دور التجارة في تأسيس وتطور المدن الجزائرية في العصر الوسيط "المدن الساحلية أنموذجاً"

**The role of trade in the founding and development of Algerian cities in the Middle Ages is "coastal cities as a model".**

ط.د/ هشام، حجار

جامعة زيان عاشور الجلفة- الجزائر

hichamkroos@gmail.com

ط.د/ رحمة العقاب

جامعة زيان عاشور الجلفة- الجزائر

djihadel96@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/03/24 تاريخ القبول: 2022/11/10 تاريخ النشر: 2022/11/30

**ABSTRACT :**

Urbanization is the physical image of the civilizational development of any nation through its historical course, and the city is the one that expresses urbanization in its social and material sense as the civilized appearance of the human meeting, and the Islamic world has known from the second century AH a remarkable urban development reached its peak during the fourth and fifth centuries Hijri, and the establishment of cities is one of its most prominent features, and there is no doubt that the situation in the Middle Maghreb did not deviate from that, as it knew the establishment of many cities after the conquest Islamic, and if the construction of cities is subject to multiple political and military factors,

Through this intervention, we aim to highlight the role of trade in the establishment and development of the cities of the Middle East, through the analysis and extrapolation of historical and geographical writings on the emergence of coastal cities in the Middle Maghreb, and an attempt by us to learn about all aspects of the subject, we tried to address the general concept of the city, the reasons and factors of its emergence in the Middle Maghreb, focusing on the trade factor, and then devoted the last part to the study of the role of trade in the

emergence and development of Algerian coastal cities during the Middle Ages..

**Keywords:** City, Urbanization, Trade, Middle Maghreb, Coastal Cities

### الملخص:

يعتبر العمران الصورة المادية للتطور الحضاري لأي أمة من الأمم عبر مسارها التاريخي، والمدينة هي التي تعبر عن العمران بمفهومه الاجتماعي والمادي باعتبارها المظهر الحضاري للاجتماع البشري، وقد عرف العالم الإسلامي ابتداء من القرن الثاني الهجري تطورا عمرانيا ملفتا بلغ ذروته خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، ويعد تأسيس المدن من أبرز سماته، ولاشك أن الحال في بلاد المغرب الأوسط لم يشذ عن ذلك، إذ أنه عرف إنشاء العديد من المدن بعد الفتح الإسلامي، وإذا كان بناء المدن يخضع لعوامل متعددة، سياسية وعسكرية وجغرافية، فإن تاريخ التمدن في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط يثبت أن هذه الحركة كانت مرتبطة ارتباطا كبيرا بازدهار الحياة الاقتصادية، وبالتجارة على وجه الخصوص، خاصة المدن الساحلية منها، والتي كان للتجارة دورا هاما ومحوريا في تأسيسها، وفي تطورها وازدهار عمرائها، وتبوتها أدوارا سياسية واقتصادية وعلمية كبيرة على المستويين الإقليمي والعالمي. ونهدف من خلال هذه المداخلة إلى إبراز دور التجارة في تأسيس وتطور مدن المغرب الأوسط، من خلال تحليل واستقراء الكتابات التاريخية والجغرافية عن نشأة المدن الساحلية بالمغرب الأوسط، ومحاولة منا للإلمام بجميع جوانب الموضوع، حاولنا التطرق إلى المفهوم العام للمدينة، وأسباب وعوامل نشأتها بالمغرب الأوسط، مع التركيز على عامل التجارة، ثم خصصنا الجزء الأخير لدراسة دور التجارة في نشأة وتطور المدن الساحلية الجزائرية خلال العصر الوسيط.

**الكلمات المفتاحية:** المدينة، العمران، التجارة، المغرب الأوسط، المدن الساحلية.

## مقدمة:

يعتبر العمران الصورة المادية للتطور الحضاري لأي أمة من الأمم، والمدينة هي التي تعبر عن العمران. بمفهومه الاجتماعي والمادي، وقد عرف العالم الإسلامي تطورا عمرانيا ملفتا، يعد تأسيس المدن من أبرز سماته، ولاشك أن الحال في بلاد المغرب الأوسط لم يشذ عن ذلك، إذ أنه عرف إنشاء العديد من المدن بعد الفتح الإسلامي، ويثبت تاريخ التمدن في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط أن هذه الحركة كانت مرتبطة ارتباطا كبيرا بازدهار الحياة الاقتصادية، وبالتجارة على وجه الخصوص، خاصة المدن الساحلية منها، والتي كان للتجارة دورا هاما في تأسيسها، وتطورها وازدهارها، وتبوتها أدوارا سياسية واقتصادية كبيرة على المستويين الإقليمي والعالمي، ومن هنا جاءت الإشكالية التي نريد معالجتها، ما مدى مساهمة التجارة في تأسيس وتطور المدن الجزائرية؟.

نقف في هذه الورقة على إبراز الدور الذي لعبته التجارة في تأسيس مدن الجزائر، من خلال تحليل واستقراء الكتابات التاريخية والجغرافية عن نشأة المدن الساحلية بالمغرب الأوسط، ودور التجارة في ذلك، وعلى نشأة وتطور المدن الساحلية الجزائرية خلال العصر الوسيط، متبعين المنهج التاريخي المبني على الوصف، ومعتمدين على آلية التحليل والاستقراء من أجل بناء صورة واضحة عن علاقة التجارة بنشأة المدن الجزائرية.

## 1- دور التجارة في نشأة مدن المغرب الأوسط:

عرف العالم الإسلامي ابتداء من القرن 2هـ تطورا عمرانيا كبيرا، وبلغ هذا التطور ذروته خلال القرنين 4هـ و5هـ، ويعد تأسيس المدن أبرز سماته، وأصبحت هذه المدن تمثل أكبر مدن العالم، وعلى ضوء هذا فإن المجتمع الإسلامي هو مجتمع مدن بالدرجة الأولى، ويلاحظ أن هذا

النهوض العمراني اعتمد أساسا على الازدهار الاقتصادي، الذي كان ينحصر حينها في النشاط التجاري<sup>(1)</sup>، خاصة مع وجود شبكة من الطرق التجارية المستعملة، التي كانت نواة لتأسيس تجمعات عمرانية جديدة<sup>(2)</sup>.

يشير ابن خلدون إلى العلاقة بين العمران والنشاط الاقتصادي، بقوله: "...ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن، ووسع المصر"<sup>(3)</sup>، وفي هذا إشارة واضحة إلى دور التجارة في نمو وتطور العمران، باعتبار التجارة أهم مصادر الدخل والخرج، كما يرى ان وجود المدينة التي تكون اجتماعا انسانيا ضرورة ملحة، لكي يتمكن من تحصيل قوته، وحاجته التي لا تتم إلا بتكامل المهن والصناعات، والأکید أن من الضروريات التي تؤمن حاجة الانسان في غذائه ولباسه وطعامه، التجارة ومبادلاتها.<sup>(4)</sup>

ومن شروط اختيار موقع المدينة عند ابن الأزرق، قرب الموقع من البحر لتسهيل المبادلات التجارية، على أن يكون الموقع على جبل، أو قريبا من التجمعات الحضرية، وهذا جلبا للمنافع الاقتصادية، ودفعاً للمضار الأمنية<sup>(5)</sup>، ويجعل ابن الأزرق التجارة سببا من أسباب اختطاط المدن فيقول: "وتعدد الأعمال التي هي سبب الكسب، مقتضى لحصول الثروة بما يفضل عنها بعد الضروريات من الفضلة الزائدة، وينشأ عن هذا الفائض في الثروة اتخاذ المعامل والحصون، واختطاط المدن والأقطار"<sup>(6)</sup>.

إن بناء مدن جديدة، وتطور مدن أخرى ببلاد المغرب الأوسط له علاقة جدلية مع الازدهار التجاري الحاصل، فحصول فئات المجتمع على الثراء، الناتج عن امتلاك أعداد هائلة من المواشي والمواد الزراعية، والمتاجرة بها، واتصال هذه الفئات بفئات ثرية أخرى، جعلها تتحول من حياة الظعن الى حياة الاستقرار، ورافق هذا العامل، الموقع الجغرافي، فتواجههم في مناطق تعتبر معابر تجارية عامرة، الى جانب توفر الأمن والاستقرار، وعوامل أخرى تختلف من

منطقة لأخرى، يجعل المنطقة ملائمة لشروط تأسيس المدن<sup>(7)</sup>، كما أن تدفق معدن الذهب إلى بلاد المغرب الأوسط بسبب تغلغل تجارها في السودان الغربي منذ القرن 9/3م هو الذي سمح ببناء وانعاش عدة مدن جديدة وقديمة، من بينها تاهرت وتنس والمسيلة وبجاية التي كانت عقد محطات القوافل وبضاعتها من الذهب<sup>(8)</sup>، وتحولت مدن غدامس وورجلان وودان وزويلة من مجرد قرى صغيرة ومغمورة على حافة الصحراء إلى مدن وحوضر أهلة بالحركة والنشاط، وغدت مراكز حضارية تزدان بالعلم والثقافة والسياسة والفن.<sup>(9)</sup>

تعد أولية المدينة بالعالم الإسلامي ما بين القرنين 2-5هـ ظاهرة ثابتة ورئيسية، فمن سمرقند إلى قرطبة كانت الحضارة الإسلامية حضارة مدينية تتميز بوحدها وبحركة تنقل حرة وواسعة للناس والبضائع، وكان العالم الإسلامي يبدو كسلسلة من الجزر المدينية المرتبط بعضها ببعض بخطوط تجارية<sup>(10)</sup>، وهذا ما ينطبق على بلاد المغرب الأوسط، فلاهتمام بالتبادل التجاري كمورد اقتصادي، كان محفزا ومنشطا للحركة الاجتماعية بمدنه بصفة عامة، ويلاحظ أن توزيع شبكة المدن في المغرب الإسلامي، يدل على ارتباطها بالطرق التجارية الرئيسية، بحيث أن المدن التي أسست قبل القرن 5هـ، كانت مركزة في الهضاب العليا، وهذا أمر طبيعي إذا ما تم التعرف على الطريق الرئيسي الممتد من إفريقية إلى المحيط الأطلسي، أما بعد القرن 5هـ، فإن العوامل الجديدة والطرق التجارية البحرية والساحلية الجديدة، جعلت النشاط العمراني يتحول من الهضاب إلى السواحل، بواسطة ما أحدث ما بين المدن الواقعة في الداخل، والشريط الساحلي، مثل طريق القلعة إلى بجاية، أو من تاهرت إلى تنس، أو من تلمسان إلى هنين، وغيرها من الطرق على طول الشريط الساحلي لبلاد المغرب.<sup>(11)</sup>

ومن بين أهم محاور النهضة العمرانية للمدينة، وأحد متطلبات سكانها الأسواق، التي تعتبر ركيزة تجارية هامة في المدينة<sup>(12)</sup> يقول الله تعالى: {وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ، قَالَ

قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ، قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ، فَاذْعَبُوا  
 أَحَدَكُمْ بَرِّقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا، فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ،  
 وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا<sup>(13)</sup>، فالمدينة على هذا الأساس تمثل سوقا أو مركزا تجاريا ثابتا، ويؤكد  
 ذلك قول ابن خلدون: "... تتفاضل بالأسواق وكثرة الأرزاق، ونفاق الأسواق من تفاضل  
 عمراتها في الكثرة والقلة"<sup>(14)</sup>.

كانت تقام التجمعات السكانية حيث يقوم بإعداد مكان للتبادل التجاري، وكان لكل  
 قبيلة أو مجموعة من القبائل سوق محلية، وغالبا ما تتمركز في منطقة يوجد بها ماء، أو تكون  
 على الطرق التجارية الرابط بين الأقاليم الكبرى، وعادة ماتكون هذه الأسواق نواة لمدن  
 تجارية<sup>(15)</sup>، فمنطقة تاهرت مثلا بالإضافة الى كونها أرضا زراعية، بها عدة أثمار ومناطق رعوية،  
 فهي على الطريق التجاري الذي يربط شرقي المغرب بغيره، وتوسطها قبائل المنطقة جعلها  
 سوقا لها، ثم أقيمت مدن تنس ووهران اللتين أنشأهما التجار الأندلسيون أسواقا لهم مع البربر،  
 فما لبثت أن تحولت إلى مدن كبيرة<sup>(16)</sup>.

ومن المظاهر التي تؤكد دور التجارة في نشأة المدن، وجود بعض المدن التي يظهر من  
 خلال أسمائها أنها كانت سوقا قبل أن تعمر وتصبح مدينة، وهو ما يعرف بالمدن الأسواق، أو  
 المدينة السوق، كمدينة سوق حمزة، التي كانت مدينة تجارية بالدرجة الأولى، وتستبعد أي غاية  
 عسكرية في بنائها<sup>(17)</sup>، أيضا سوق إبراهيم، وسوق هوارة، وسوق ماكسن، وسوق كران،  
 وجاء ذكر هذه المدن عند البكري<sup>(18)</sup>، ويذكر ابن حوقل سوق ابراهيم على أنها مدينة، ويصف  
 سوق كران بأنه حصن<sup>(19)</sup>، والملاحظ أن مدن العلويين كانت تقترب غالبا باسم (سوق)<sup>(20)</sup>.

لذلك كان اختيار موقع المدينة في الغالب مرتبطا بالإقليم وما يوفره من إمكانيات  
 اقتصادية، وبالطرق التجارية الهامة، التي تمكن المدينة من توفير احتياجاتها، وتصدير منتوجاتها،

لاسيما وأن المدينة لا يمكن أن تعيش على وظائفها المحلية فقط، بل لابد لها من إقامة علاقات مع غيرها من المدن<sup>(21)</sup>، ومن المدن التي مارست وظيفتها التجارية، باعتبار موقعها في خريطة التجارة الدولية، ووقوعها على الطرق التجارية الكبرى، نجد مدن سدراتة، القيروان، وارجلان، المسيلة، أشير، قلعة بني حماد، أغمات، وسجلماصة، ومدينة فاس.<sup>(22)</sup>

إن الخط البياني لبعض المدن بالمغرب الأوسط كان في ارتفاع وهبوط حسب الظروف السياسية أو التجارية التي كانت عليها، فعبور القوافل بما أو إهمالها لسبب أو لآخر، كان سببا في بروز مدن على حساب مدن أخرى، وكان من نتائج الغزو الهلالي لبلاد المغرب، شلل اقتصاد المدن جراء تضرر التجارة الداخلية والصناعات، والخراب الذي حل بالمدن والقرى، وحالة اللاأمن التي شهدتها الطرق التجارية، فكانت هذه الأحداث سببا في بيزوغ فجر مدينة بجاية كعاصمة جديدة للحمايين بدل مدينة القلعة(العاصمة الأولى)<sup>(23)</sup>، وانتقل الثقل الاقتصادي تدريجيا نحو المدن الساحلية، كمدينة بجاية، والمهدية، ووهران، وتنس، وغيرها من المراسي، أو المدن القريبة من الساحل، كمدينة قسنطينة، وقفصة<sup>(24)</sup>، لهذا ارتبط اختيار مواقع المدن الإسلامية بظروف العصر الذي أنشئت فيه، منها من أنشئ إلى الداخل، ومنها ما كان ساحليا.<sup>(25)</sup>

## 2. دور التجارة في نشأة وتطور المدن الساحلية للمغرب الأوسط:

تميزت الواجهة البحرية لبلاد المغرب الأوسط بكثير من الموانئ التي امتدت من الشرق إلى الغرب، وتشير كتب الجغرافيا لابن حوقل والبكري معلومات مهمة حول النشاط التجاري للواجهة البحرية لبلاد المغرب الأوسط، وكيف كانت مرتبطة بفضاء مغربي اندلسي، ويتطرق هذين الجغرافيين خصوصا إلى رصد لأهم مدن الساحل المغربي، وأثناء التعريف بهذه المدن غالبا ما تتم الإشارة إلى مؤسسيها، أو المشاركين في ذلك، وبالتالي نجد معلومات قيمة حول الدور

الذي لعبه التجار الأندلسيين في هذا المجال<sup>(26)</sup>، ومن بين مدن المغرب الأوسط التي شارك الأندلسيون في تأسيسها، مدن تنس ووهران وأسلن، فالعلاقات الودية المتميزة للتجار الأندلسيين مع قبائل بربرية شجع على إنشاء هذه المدن وإعطائها صيغة متميزة دائمة الحضور في تاريخ العمران<sup>(27)</sup>، وفيما يلي عرض لأهم مدن المغرب الأوسط التي كان للتجارة دورا هاما أو رئيسيا في تأسيسها:

**1.2- مدينة مرسى الخرز:** اشتهرت على أنها مرسى أو قرية أكثر من كونها مدينة على الساحل، لكنها اكتسبت أهميتها من رواج تجارة المرجان بها، ووفود السماسرة التجار من الأندلسيين خصوصا<sup>(28)</sup>، تكلم ابن حوقل عن نبلها فقال: "قرية غير أنها نبيلة"<sup>(29)</sup>، وإذا كان ابن حوقل وصفها بالقرية، فإن الإدريسي يذكر أنها مدينة فيقول: "وعلى نحر البحر الملح مدينة مرسى الخرز"<sup>(30)</sup>، وهذا دليل على تطور المدينة في هذه الفترة.

يمكن اعتبار تجارة المرجان السبب الرئيس في تحول قرية مرسى الخرز إلى مدينة، واشتهرت المدينة باستخراج المرجان الأحمر وتصديره إلى مختلف الآفاق، وكان له رواج في الهند والصين ومعظم بلدان المحيط الهندي التي لا يوجد بها إلا المرجان الأبيض<sup>(31)</sup>، وهو أنفس مرجان في الدنيا على حد قول ابن حوقل<sup>(32)</sup>.

**2.2- مدينة بجاية:** شكلت مدينة بجاية منذ اتخاذها عاصمة للحمايين إحدى أهم مدن بلاد المغرب الإسلامي، ولم ينحصر دورها في المجال السياسي كعاصمة مركزية للدولة الحمادية أولا، ثم عاصمة إقليمية في ظل الحكم الحفصي، بل تعداه إلى الجانب الاقتصادي، فأصبحت وفي ظرف قصير جدا، من أشهر المراكز التجارية الكبرى لحوض البحر المتوسط الغربي<sup>(33)</sup>.

كانت بجاية قبل تمصيرها من قبل الحماديين مرسى صغيرا للصيد بين بلاد زاوارة وكتامة<sup>(34)</sup>، وساحل قلعة بني حماد، أي أن مرسى بجاية قام بدور الواجهة البحرية، والمرسى



الذي تتم فيه مختلف الصفقات والتبادل التجاري لتصريف منتوجات قلعة بني حماد، وتصريف مايجلب إليها من مختلف الأقاليم القريبة منها، كالزاب وبلاد كتامة وزواوة<sup>(35)</sup>، لذلك لا نجد في المصادر العربية أي إشارة توضح وضعها خلال القرون الأربعة الأولى من التواجد الإسلامي، سوى إشارة واحدة من طرف ابن حوقل الذي يضعها ضمن قائمة المرافئ التي تفصل مدينة بونة عن جزائر بني مزغناي<sup>(36)</sup>، وأعطى كثيرا من التفاصيل عن اقتصاد المدينتين السابقتين، لكنه يكتفي بتعبير "مرسى" عند ذكره لبجاية، وهذا يدل على أنها كانت قديما ميناء فقط.<sup>(37)</sup>

ارتبطت بجاية من الناحية البشرية بوجود التجار الأندلسيين<sup>(38)</sup> والقبائل المحلية ككتامة من جهة، واتخاذها كمرسى تجاري لقلعة بني حماد من جهة أخرى، حيث كانت السفن التجارية تغد إليها محملة، وهو الأمر الذي بدأ يكسبها أهمية اقتصادية، بفضل ربطها للتجارة الصحراوية بالتجارة البحرية المتوسطية<sup>(39)</sup>، وعملت السلطة الحمادية على إرساء مؤسسات تجارية وصناعية فيها، كتشييد دار لصناعة السفن، وبناء الأسواق، كسوق القيسارية، وباب البحر، والصوافين، والبزازين وغيرها، الأمر الذي ساهم في بروز المدينة السريع، وهكذا انفتحت بجاية على البحر المتوسط، وجلبت من تجارته قسما كبيرا من ازدهارها وتوسعها العمراني الملفت.<sup>(40)</sup>

**3.2-مدينة تدلس:** لم تكن من المدن أو المراسي المشهورة قبل القرن 6هـ، فلا نجد لها ذكرا في المصنفات العائدة إلى ما قبل القرن 6هـ، وأول من ذكرها الإدريسي، ومن المرجح أنها كانت تابعة لمدينة بني جناد على مقربة من مرسى الدجاج، التي تبعد عنها بأربع وعشرين ميلا، وتدلس من التي توجد بها جالية أندلسية من البحارة والتجار ضمن مجالات كتامة<sup>(41)</sup>، وهي مدينة قديمة، استعملها الرومان كمرسى بحري للصيد، ويطلق عليها اسم (Rousoukkour)،

لكنها هجرت بعد الزلزال الذي حل بها سنة 415م، ولم تشهد ازدهارا بعد ذلك، إلى أن حل بها بنو صمادح ومن معهم من أندلسي المرية.<sup>(42)</sup>

يَعْتَبِرُ عبد الرحمن الجليلي، ابن صمادح المؤسس الفعلي لمدينة تدلس، واقترن ظهورها وازدهارها التجاري والعماري بتزول بني صمادح، بعدما أقطعهم الأمير الحمادي المنصور أراضيها، فعملوا على تغيير حالها إلى الأحسن باستعمال مهارتهم في البناء والعمارة، وفلاحة الأرض، وبراعتهم في تنمية الأموال بالتجارة، فأصبحت المدينة بعد نزول هذه الجالية الأندلسية مركزا ثريا.<sup>(43)</sup>

أظهرت كتابات الإدريسي دور مرسى تدلس في تشييط الحركة التجارية، وكيف كانت مرتبطة بمراسي جديدة في البحر المتوسط<sup>(44)</sup>، خصوصا بعد استقرار بني صمادح بها، حيث لعب ارتباطها التجاري مع بجاية على مكائنها، دورا بارزا في تطورها العمراني واتساع مساحتها.<sup>(45)</sup>

**4.2-مدينة مرسى الدجاج:** عرفت الاستقرار البشري منذ عهود قديمة، وكانت موجودة قبل وصول المسلمين إليها "وهي قديمة البناء، وفيها آثار عجيبة للأول"<sup>(46)</sup>، وارتبط اسمها بطائر دجاج البحر المتوفر بكثرة في سواحلها<sup>(47)</sup>، واشتهرت لفترة زمنية امتدت من العهد الفاطمي إلى النصف الأول من القرن 10/هـ، إلى غاية العهد الموحد في القرن 6/12م، وبلغت مكانة مقبولة أواخر العهد الزييري، ومعظم الفترة الحمادية، إلى أن خربت عقب ثورة بني غانية ضد الموحدين.<sup>(48)</sup>

كان يسكن المدينة عدد قليل من البشر ينسحبون منها خلال فصل الصيف خوفا من قدوم الأعداء بحرا<sup>(49)</sup>، ويتشكل هؤلاء السكان من قبيلة كتامة البربرية، والتجار والجاليات القادمة إليها من مختلف المناطق، خاصة الأندلسيين منهم<sup>(50)</sup>، فموقع المدينة ومرساها جعلها منها

مركزا مهما لممارسة مختلف الأنشطة التجارية والبحرية<sup>(51)</sup>، وأكثر الوافدين على مرسى الدجاج التجار الأندلسيون الذين ساهموا في ازدهارها التجاري والعمري كغيرها من المدن الساحلية في المغرب الأوسط كتنس وشرشال ووهران وتدلس<sup>(52)</sup>، وكان لوفرة خيرات المدينة من فواكه-خاصة التين- وقمح، وألبان، ومواشي مازاد عن الحاجة، وأغرق الأسواق المجاورة، كما كانت تسكنه جالية أندلسية منذ القرن الرابع على الأقل.<sup>(53)</sup>

يرجع ازدهار المدينة التجاري والعمري لدخول الأندلسيين المدينة، فإذا قارنا بين وصف البكري لمدينة مرسى الدجاج، ووصف ابن حوقل يتبين لنا بأن المدينة تطورت، وتحدث البكري عن وجود أسواق وجامع، ويعود الفضل في هذا إلى الحضور الأندلسي المخترف، خاصة في مجال التجارة البحرية.<sup>(54)</sup>

5.2-مدينة تنس: تعتبر من أهم المراكز التجارية الساحلية في بلاد المغرب، وارتبطت نشأتها في القرن 3هـ، بالتواجد الأندلسي، فكان معظم سكانها من التجار الأندلسيين، الذين ترددوا في القرنين 2 و3هـ على سواحل المغرب، كتجار البيرة وتدمير ومختلف المدن الأندلسية الأخرى<sup>(55)</sup>، ووصفها الكثير من الجغرافيين بأنها عدوة الأندلسيين، يقصدها الأندلسيون بسفنهم وتجارتهم ويفضلونها على غيرها، وهي أكبر المدن التي يتعدى منها أهل المشرق وأهل إفريقية إلى الأندلس، ومنها كانت مراكب الأندلس تمتاز القمح وتستورد مختلف أنواع الحبوب.<sup>(56)</sup>

إذ أن ابتداء أمر تنس كان سوقا بدأ ينمو ويجذب الناس إليه، ويبدو أن الأرياح التي حققتها القبائل المجاورة هي التي دفعت بها إلى دعوة التجار الأندلسيين إلى قلعة تنس لكي يتخذوها سوقا ويجعلوها سكنى،<sup>(57)</sup> وانعكس هذا الرخاء والزيادة في عدد السكان على نمو المدينة العمري وزاد عدد البيوت والأسواق، واتسعت المدينة.<sup>(58)</sup>

**6.2-مدينة وهران:** وصفها العبدري(ت720هـ) في رحلته بالمدينة المليحة، الحصينة، البرية والبحرية، وكانت مرسىً لتلمسان وأنظارها ومنتجرا لتلك النواحي<sup>(59)</sup>، بنى مدينة وهران محمد بن أبي عون، ومحمد بن عبدون، وجماعة من الأندلسيين الذين ينتجعون مرسى المدينة سنة 290هـ/902م<sup>(60)</sup>، ويؤكد ذلك صاحب الاستبصار فيقول: "هي مدينة على ضفة البحر، بناها جماعة من الأندلسيين البحرين بسبب المرسى...".<sup>(61)</sup>

تشابه ظروف تأسيس وهران بظروف تأسيس مدينة تنس، فقد ارتادها البحارة والتجار الأندلسيين باعتبارها سوقا مركزيا للمنطقة، وجعلوها قاعدة تجارية ينطلقون منها إلى الأندلس وما حولها، وسكنوها مع قبائل بنو مسكن، ولما كانت المنطقة تتصف بخصب أراضيها حصل فائض من الإنتاج الفلاحي، فرض عليها الدخول في الميدان التجاري، فنتج بذلك ثراء سكانها، الذين بدأوا يتزعمون إلى حياة الاستقرار والتمدن.<sup>(62)</sup>

شهدت في نهاية القرن 3هـ تطورا واسعا وكبيرا في عمراتها، ونشاطها الاقتصادي والاجتماعي، بعد أن وصل إليها عدد كبير من المهاجرين الأندلسيين حاملين معهم خبراتهم المعمارية ومهاراتهم الفنية والصناعية وأنشطتهم التجارية، ووقع الاختيار على وهران لتمييزها بصلاحيات جغرافية عديدة، أهلت وهران لتكون مرسىً بحريا تجاريا آمنا، كان حجر الأساس في تأسيس المدينة.<sup>(63)</sup>

### خاتمة:

أخيرا وبناء على ما تقدم في العرض، خلصنا إلى جملة من النتائج نجملها فيما يلي:  
- يتضح أن مدن المغرب الأوسط كما هي خاضعة لظروف تاريخية وسياسية وعسكرية، فإنها خاضعة أيضا لوضعها الجغرافي والاقتصادي، وتوسطها شبكة من الطرق التجارية الهامة.

- نستنتج وجود علاقة تناسبية بين التطور العمراني والازدهار التجاري، فكلما ازدهرت الأوضاع التجارية، أنشئت المدن وازدهرت، وكلما ضعفت التجارة، وكسدت الأسواق في المدينة، تردت أوضاعها، وأصبحت أقرب إلى الخراب منها إلى الاعمار.
- الكثير من المدن الداخلية والساحلية والصحراوية ببلاد المغرب الأوسط، كان منشؤها الأول لا يعدو أن يكون سوقا أو مرسى صغيرا للتجارة، أو مجرد منطقة عبور تجارية، ثم تطورت شيئا فشيئا لتصبح مدنا ذات أهمية تجارية وسياسية كبيرة في بلاد المغرب الإسلامي.
- كان لتزايد نشاط البحارة الأندلسيين ببلاد المغرب الاوسط دورا هاما في تطور ونمو حركة العمران فيها، وذلك ببناء مدن جديدة وإحياء مدن قديمة ليصبح لها شأن، خصوصا على الصعيد التجاري.
- نستنتج من خلال النصوص التاريخية والجغرافية الدور البارز الذي لعبته التجارة في نشأة المدن في بلاد المغرب الأوسط، حيث أنه توجد مدن كان عامل تأسيسها تجاريا بحت، كالمدن التي كانت بدايتها سوقا، كسوق إبراهيم، وسوق حمزة، وجراوة أبي العيش، أو المدن التي كانت محطات تجارية على تصالب الطرق التجارية الرئيسية أو الفرعية، كمدينة وارجلان، والمدن الساحلية التي أنشأها التجار الأندلسيون، مثل مدن تنس، وهران، ودلس، ومدنا أخرى كانت التجارة عاملا من بين عدة عوامل أخرى ساهمت في نشأتها، كتاهرت والمسيلة وبجاية.

#### الهوامش:

- 1- الحبيب الجنحاني، المجتمع العربي الإسلامي الحياة الاقتصادية والاجتماعية، د.ط، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2005، ص 75.
- 2- عز الدين بوجيماوي، تأثير الطرق في إنشاء مدن المغرب الأوسط، "مجلة الخلدونية"، العدد 01، جامعة ابن خلدون تيارت، الجزائر، د.ت، ص 23.

- 3- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (ت808ه/1405م)، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار، ج1، د.ط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2000م، ص452.
- 4- المصدر نفسه، ص54.
- 5- ابن الأزرق أبي عبد الله (ت896ه/1493م)، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق: علي سامي النشار، ج2، د.ط، منشورات وزارة الثقافة والفنون، العراق، د.ت، ص279.
- 6- المصدر نفسه، ص194.
- 7- جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10م)، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ت، ص343.
- 8- مصطفى شاكر، المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، ج2، ط1، مكتبة لسان العرب، 1988م، ص418.
- 9- سوادي عبد محمد وصالح عمار الحاج، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ط1، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، مصر، 2004م، ص139.
- 10- المرجع نفسه، ج2، ص429.
- 11- محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، د.ط، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1988م، ص64.
- 12- إبراهيم القادري بوتشيش، تاريخ الغرب الإسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، ط1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1994م، ص135.
- 13- القرآن الكريم، سورة الكهف، رقم الآية 19.
- 14- ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص450.
- 15- جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص134.
- 16- مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج2، ص347.
- 17- المرجع نفسه، ص356.
- 18- البكري أبي عبيد الله (ت487ه/1094م)، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، د.ط، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت، ص65.
- 19- ابن حوقل أبي القاسم (عاش في القرن4ه/10م)، صورة الأرض، د.ط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992م، ص89.

- 20- جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص 193.
- 21- محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص ص 88-89.
- 22- المرجع نفسه، ص 90.
- 23- البشير بوقاعدة، رسالة لنيل شهادة الماجستير بعنوان خراب المدن بالمغرب الأوسط والأدنى بين 296هـ-909م/547-1152م، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2013/2012م، ص 92.
- 24- عزالدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط 1، دار الشرق، بيروت، 1403هـ/1983م، ص 308.
- 25- جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص 91.
- 26- يونس وصيفي وخديجة بورملة وعبد القادر بويابة، النشاط البحري الأندلسي في حوض البحر المتوسط ودوره في نشأة وتطور المدن الساحلية للمغرب الأوسط (دراسة نماذج بعض المدن من خلال الكتابات الجغرافية)، "مجلة عصور الجديدة"، العدد 23، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، الجزائر، 2016م، ص 133.
- 27- رفيق خليف، الأندلسيون وتنشيط حركية الواجهة البحرية للمغرب الأوسط، الملتقى الدولي: الموانئ الجزائرية عبر العصور سلما وحربا، مخبر البناء الحضاري، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، الجزائر، 2009م، ص ص 141-142.
- 28- المرجع نفسه، ص ص 138-139.
- 29- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 76.
- 30- الإدريسي، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله (ت 560/1154م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج 1، ط، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002م، ص 290.
- 31- رفيق خليف، المرجع السابق، ص 138.
- 32- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 76.
- 33- خديجة بورملة، بجاية المدينة والميناء ودورها في التجارة المتوسطية خلال العصر الوسيط، "مجلة عصور الجديدة"، المجلد 08، العدد 01، الجزائر، 2018م، ص 44.
- 34- أسماء خلوط وعبد الحق شرف، الموانئ ودورها في تنشيط الملاحة البحرية والحركة التجارية بين المغرب الأوسط والأندلس (ق 3-6/10-12م)، "مجلة عصور الجديدة"، المجلد 10، العدد 01، جامعة وهران، الجزائر، 2020م، ص 255.
- 35- رفيق خليف، المرجع السابق، ص 139.

- 36- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 77.
- 37- شاکر مصطفي، المرجع السابق، ج 1، ص 189.
- 38- كان الأندلسيون الذين استوطنوا بجاية في القرون الأولى في الأصل تجار، آثروا البقاء في بجاية لمزاياها الصحية، عكس بونة. (أنظر: رفيق خليفي، المرجع السابق، ص 140).
- 39- خديجة بورملة، المرجع السابق، ص 45.
- 40- المرجع نفسه، ص 48، 49.
- 41- رفيق خليفي، المرجع السابق، ص 146.
- 42- نفسه.
- 43- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ط 2، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965م، ص 374، 375؛ رفيق خليفي، المرجع السابق، ص 147.
- 44- الإدريسي، المصدر السابق، ج 1، ص 259.
- 45- علاوة عمارة، دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ت، ص 142-143؛ يونس وصيفي، المرجع السابق، ص 140.
- 46- مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، تعليق: سعد زغلول عبد الحميد، د.ط، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، 1985م، ص 131.
- 47- إسماعيل بن النعمان، مدينة مرسى الدجاج من خلال النصوص التاريخية والبقايا الأثرية، "مجلة عصور الجديدة"، العدد 19-20، جامعة وهران، الجزائر، 2015م، ص 17.
- 48- إسماعيل بن النعمان، المرجع نفسه، ص 15-16.
- 49- الإدريسي، المصدر السابق، ج 1، ص 259.
- 50- البكري، المصدر السابق، ص 65.
- 51- أسماء خلوط، المرجع السابق، ص 259.
- 52- إسماعيل بن النعمان، المرجع السابق، ص 17.
- 53- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 77؛ رفيق خليفي، المرجع السابق، ص 140.
- 54- البكري، المصدر السابق، ص 65؛ علي عشي، أطروحة لنيل الدكتوراه بعنوان التوجه البحري للمغرب الأوسط وأثره في طرق التجارة والمواصلات (2-10/8-16م)، جامعة باتنة 1، 2016/2017م، ص 144.
- 55- جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص 359.



- 56- ابن حوقل، المصدر السابق، ص78؛ البكري، المصدر السابق، ص61؛ ياقوت الحموي شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله (ت626ه/1228م)، معجم البلدان، ج2، د.ط، دار صادر، بيروت، 1977م، ص48؛ الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت أواخر ق9ه/15م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1975م، ص138.
- 57- البكري، المصدر السابق، ص61؛ جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص359.
- 58- جودت عبد الكريم، المرجع نفسه، ص360.
- 59- العبدري محمد البنسي (ت720ه/1321م)، الرحلة المغربية، تقديم: سعيد بوفلاحة، ط1، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 1428ه-2007م، ص211.
- 60- البكري، المصدر السابق، ص70؛ جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص363.
- 61- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص133.
- 62- عبد الكريم جودت يوسف، المرجع السابق، ص363.
- 63- ابن حوقل، المصدر السابق، ص79.